معجزة القرآن.. والمعجزات السابقة

معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين. معجزات الرسل خرقت قوانين الكون، وتحدّت وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله ولكنها معجزات كونية مَنْ رآها فقد آمن بها، ومن لم يرها صارت عنده خبرا إن شاء صدّقه وإن شاء لم يصدّقه، ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث.

إذن.. فالمعجزة الكونية المُحسَّة؛ أى التى يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة، مَنْ رآها فقد آمن بها، ومَنْ لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك، على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبدا هناك رأى يقول: إن معجزات الرسل - مع تقدم العلم - يمكن أن يصل إليها البشر. وهذا الرأى غير صحيح على الإطلاق، فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة، قد يقول واحد: إننا قد نصل إلى قانون أو اختراع يشق الماء، وحتى إنْ حدث هذا فإن المعجزة تبقى خالدة؛ لأنه لا يمكن أن يأتى إنسان يضرب البحر بعصاه فينشق الماء إلا موسى عليه السلام، وقد يقول الناس إن عيسى عليه السلام كان يُبرئ الأكمه والأبرص، وإن هناك دواء الآن لبعض أو لكل هذه الداءات، ولكننا نقول له: إن المعجزة ستبقى معجزة فلن يستطيع بشر أن يشفى إنسانا مريضا بمجرد لمسه أو الإشارة إليه إلا عيسى عليه السلام، قد يقول بعض الناس تستطيع أن نذهب من مكة إلى بيت المقدس ونعود عدة مرات كل يوم، وهذا رد على معجزة الإسراء، فنقول: أبدا، لن يستطيع إنسان أن يذهب بغير طائرة فى الجو إلا محمد عليه السلام، فضلا عن الصعود إلى السماء السابعة، ذلك أن المعجزة تظل خالدة فى نوعها وأدائها مهما طال الزمن، وهى معجزة أساسها الإعجاز بالطريقة التى تمت بها ولا تصل إليها القوانين التى يكشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر، بل تظل المعجزة معجزة.

على أننا إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدنا هذه المعجزات فِعْلا من أفعال الله وفعل الله من الممكن أن ينتهى بعد أن يفعله الله سبحانه وتعالى، البحر انشق لموسى ثم عاد إلى طبيعته، النار لم تحرق إبراهيم، ولكنها عادت إلى خاصيتها فى الإحراق ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم صفة من صفات الله، وهى كلامه، والفعل باق بإبقاء الفاعل له والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه.

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى التى يؤيد بها رسله، أو يريدها آية من آياته تختلف عن معجزات البشر فى أن الله سبحانه يجعل من يقوم بالمعجزة يملك خاصية هذه المعجزة وقتها أى إن الله سبحانه وتعالى يجعل الضعيف قويا، وغير القادر قادرا والذى لا

يستطيع شيئا يستطيع أن يفعله، فمعجزة عام الفيل مثلا التى أرسل فيها الله سبحانه وتعالى طيرا أبابيل أفنت جيش أبرهة عندما جاء ليحطم الكعبة، جعل الله المعجزة فى أن الطير الضعيف يستطيع أن يهزم فيلاً جبارا قويا، ويستطيع أن يفنى جيشا من أقوى جيوش العالم إن لم يكن أقواها فى ذلك الوقت، ولقد كانت المعجزة فيها قدرة هائلة حتى إنها هزت نفوس بعض المؤمنين الذين لم يروها، أو لم يشهدوها، وجاءوا بعد عصر النبوة، ولقد أثير حول هذه المعجزة حديث طويل فى أنه كيف تستطيع الطير وهى تمسك بحجارة صغيرة جدا أن تفنى جيشاً من الأفيال، ولو هدمت فوقه عمارة لخرج سالماً معافاً، ووجد بعض العلماء فى هذا الكلام تجاوزاً لحدود العقل، فبدأوا يحاولون تخريجها عقليا بأن يقولوا: إن هذه الطير، كانت تحمل جراثيم فتكت بهذه الفيلة، إلى آخر هذا الكلام الذى يحاولون به تبرير المعجزة، والمعجزة لا تُبرَّر أبدا، لماذا؟ لأنها لا تخضع لقوانين البشر، فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى، ومعجزة الفيل حدثت كما رواها القرآن من ناحية الطير، ومن ناحية الحجارة، ذلك أن هذه المعجزة وقعت فى العام الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فى الأربعين من عمره، أى إنه عندما نزلت هذه الآية كان هناك من شهدوا عام الفيل ممن أعمارهم قد بلغت الخامسة والخمسين، والستين، والخامسة والستين، والسبعين، وما فوق ذلك، فلو أن القرآن جاء برواية منافية أو مخالفة لما شهدوه لقالوا: إن هذا لم يحدث وإن طيرا لم تأت، وإن حجارة لم تستخدم، ولكن كون القرآن جاء بهذا، وهناك شهود وشهود من الكفار الذين يهمهم الطعن فى الدين، ويهمهم أن يشككوا فيه، ولم يستطيعوا أن يجادلوا فى هذه الآية، إذن فالطير قد جاءت، والحجارة قد استُخدمت وهذه معجزة من معجزات الله تحمل سمة المعجزات وهى أن الله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يحقق المعجزة يعطى القوة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها، فهنا أعطى القوة للطير لتغلب الفيل، عكس المنطق تماما وأعطى قدرة السحر لموسى فغلب السحرة وأعطاه قدرة شق البحر فضرب الأرض بعصاه فشق البحر، وأعطى عيسى عليه السلام قدرة شفاء المرضى وإحياء الموتى، كل هذا بإذن الله وهنا الاختلاف بين الإعجاز الإلهى وأى إعجاز آخر، فأنت حين تريد أن تجعل رجلا ضعيفاً يحمل حملا ثقيلا لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل، ولكنك تستطيع أن تحمله عنه، وأى اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يعطى الإنسان قدرة خارقة ولكنه يساعده باستخدام شىء خارجى، أما الله سبحانه وتعالى، فإنه هو وحده المستطيع أن يجعل الضعيف قويا والعاجز قادرا، والقوى لا حول له ولا قوة، ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوى، فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله سبحانه وتعالى، الله أعطى إبراهيم مثلاً قدرة الخلق حينما طلب منه أن يأتى بالطير

ويقطعها، ثم يضع على كل جبل جزءا ثم يدعوها فتأتى له سعيا، أى إن إبراهيم هو الذى دعا، والله هو الذى أذن وشاء.

إذن.. معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين فى كثير من زوايا الإعجاز، وفى القرآن إعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه إعجازٍ أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الإعجاز، أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال، بل إن إعجاز القرآن موجود أحياناً فى حرف واحد من القرآن يحمل إعجازا رهيبا، وتلك حقيقة سنتناولها بالتفصيل فى الفصول القادمة ولكن الذى يجب أن نعرفه الآن، أن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق ذلك أن القرآن للعالمين. أى للدنيا كلها، لا يقتصر على أمة بعينها، وإنما هو الدين الكامل لكل البشر. ومن هنا فإنه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل، وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الإعجازى فى قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء وبذلك يكون قد جمد، والقرآن متجدد لا يجمد أبدا، سخى.. يعطى دائماً، قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله، وبالآية نفسها ؛ أى إن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقاً جديدا فى معناها، ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق فى أول وقت نزول القرآن.

ولكى تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين فى القرآن الكريم الأحكام الخاصة بمنهج العبادة، أو ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التى حددها الله سبحانه وتعالى لِيُعبد فى الأرض، كلمة افعل، ولا تفعل، هذا حلال وهذا حرام. هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل، وإنما كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما فُسِّرت فى عهد نزول القرآن، الصلاة خمس مرات، لا اجتهاد فى هذا شهادة أن لا إله إلا الله، الزكاة، ما حرم على الإنسان وما أحل له الزواج والطلاق، كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره ولا اجتهاد فيه، لا يستطيع أحد أن يأتى ويقول لنا: إن الصلوات أربع مرات فى اليوم ويفسر هذا بأى وجه من التفسير، هذا غير مقبول، وليس مجال المناقشة، افعل ولا تفعل، الأحكام التى إذا فعلتها نجوت، وإذا لم تفعلها عوقبت، هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد لنا كيف نعبده، وهو الذى يختار لنا الطريق.

نأتى بعد ذلك إلى الأسباب المتصلة بقوانين الكون والخلق، تلك الأشياء التى لم يكن للعقل البشرى الاستعداد العلمى وقت نزولها ليفهمها تماماً، مثلا كروية الأرض، إحدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن، دوران الأرض حول نفسها، الزمن، ونسبية الزمن وعدد من حقائق الكون الأساسية. نجد أن الآيات التى تتناول هذه الأشياء مر الرسول صلى الله عليه وسلم عليها مرورا وترك العقل فى كل جيل أن يأخذ قدر حجمه

والمعجزة هنا فى القرآن أنه يعطى كل عقل قدر حجمه، ويعطى كل عقل ما يعجبه ويرضيه، فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه، ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه، والمتبحر فى العلم يجد فى القرآن إعجازا يرضيه.

هذه واحدة من إعجاز القرآن الكريم، إنه يقدم لكل نفس باستخدام الآيات والألفاظ التى تؤدى إلى المعنى، فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من أسرار كونه، ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدى المعنى نفسه. وفى الصفحات التالية نضرب مثلاً يوضح ذلك:

obeikandl.com

من الإعجاز الكونى.. المشارق والمغارب

يقول الله سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [الشعراء: ٢٨]. ويقول تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [المزمل: ٩]. ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: ١٧]. ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠].

لو أخذنا كل آية من هذه الآيات وقت نزول القرآن الكريم على حجم تفكير العقل البشرى فى ذلك الوقت، نجد أن مفهوم المشرق هو جهة شروق الشمس، ومفهوم المغرب هو جهة غروب الشمس، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى المشرق والمغرب فليس هناك تعارض بين العقل والآية فى ذلك، نأتى بعد ذلك للآية الكريمة: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ نقول إذا كان المشرق هو جهة الشرق، فإن رب المشرقين معناها أنها تجمع بين عمومية الجهة وهى الشرق، وبين المكان المحدد لشروق الشمس بمعنى أنك تقول: هذا هو الشرق، وهذا هو الغرب، وتشير بيدك إلى جهة المشرق أو المغرب، فإذا أردت أن تحدد مكان شروق الشمس، فإنك تقول: إن الشمس تشرق من هنا، وتحدد المكان بالضبط هذا هو التفسير فى وقت نزول الآية، ثم نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ التفسير وقت نزول الآية هو أن كل بلد له مشرق وله مغرب، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى هو رب المشارق كلها والمغارب كلها.

فإذا جئنا إلى هذه الآيات اليوم لوجدنا تفسيرها يختلف ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ هذه قالوا عنها عمومية، ولكن الله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب، كروية الأرض تحتم هذا، ففى الوقت الذى تغرب فيه الشمس على جهة، فى اللحظة نفسها تشرق على جهة أخرى، إذن.. قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾، ولم يقل رب المشرق ورب المغرب، أو لله المشرق. أو لله المغرب حيث كان المعتقد وقت نزول القرآن أنهما جهتان مختلفتان تماماً، متقابلتان بالنسبة للعين المجردة، ولكن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾، معناها أن الشروق والغروب يتم فى وقت واحد، أى إن الشمس تغرب على بلد فى الوقت نفسه الذى تشرق فيه على بلد آخر.

نأتى بعد ذلك للآية الكريمة: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾. لماذا قال المشرقين بالذات والمغربين؟ إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد أنها مقسمة إلى جزأين؛ نصف مضىء ونصف معتم، والنصف المضىء له مشرق ومغرب، بينما النصف المعتم يسبح فى ظلام دامس، فإذا استدارت الكرة يواجه النصف المظلم الشمس والنصف المضىء يصبح

openkanal.com

ظلاماً، أصبح نصف الكرة الذى كان مظلماً له مشرق، ونصف الكرة الذى كان مضيئا يسبح فى ظلام، إذن.. فالكرة الأرضية فى عموميتها لها مشرقان، مشرق تضيء منه الشمس نصف الكرة ومغرب، ثم تستدير الكرة كلها، فيأتى نصف الكرة الآخر فيكون له مشرق ومغرب، ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ تعرض لنا بأن نصف الكرة يكون ظلاماً ليس له مشرق ولا مغرب، والنصف الآخر يكون مضيئاً له مشرق ومغرب، وعندما ينعكس الوضع يصبح هذا النصف له مشرق ومغرب، والنصف الآخر لا مشرق له ولا مغرب، وهكذا فى عمومية الكرة الأرضية، هناك مشرقان ومغربان.

فإذا انتقلنا إلى: ﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾، نجد أنه بعد أن تقدم علم الفلك لا يوجد مشرق واحد، ومغرب واحد لأى دولة فى العالم، وإنما هى مشارق ومغارب.

إذن.. فزاوية الشروق تتغير. وزاوية الغروب تتغير، ولكن الحس لا يدرك ذلك، بل إننا إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد أنه فى كل جزء من الثانية مشرق تشرق الشمس فيه على مدينة وتغيب عن مدينة أخرى، أى إن هناك ملايين المشارق والمغارب لكل بقعة من الأرض المشرق والمغرب للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال أيام السنة، لا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذى أشرقت منه فى الأمس، أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذى غربت منه بالأمس، وإن كانت جهة الشرق واحدة، إلا أن المشرق تختلف زاويته كل يوم وكذلك المغرب، وتختلف فى فصول السنة، وفى أيام الصيف عن الشتاء عن الخريف عن الربيع، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا من حركة دوران الأرض حول الشمس مرة كل عام فإن هذه الحركة هى التى تجعل لكل يوم مشرقا ومغربا بزاوية مختلفة، بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر، وأبسط شيء لتدرك هذا بدلا من الدخول فى التعقيدات الفلكية هو صيام شهر رمضان، ففى كل يوم تفطر فى مغرب مختلف عن المغرب الآخر فى الوقت وكذلك تمتنع عن الطعام فى مشرق مختلف عن المشرق الآخر فى الوقت، وأوقات الصلاة تختلف كل يوم من أيام العام تبعا لحركة الأرض حول الشمس.

واختلاف المشارق والمغارب يبين - بخلاف أن الأرض تدور حول الشمس - أن الأرض كروية، فلو كانت الأرض مسطحة، كان لابد أن تطلع الشمس من مشرق واحد وتغيب من مغرب واحد، حينئذ لا يكون هناك مشارق ومغارب، ولكن كونها كروية وكونها تدور حول نفسها هو الذى يجعل هناك مشارق ومغارب.

والذى أريد أن أقوله: إن عطاء القرآن فى الأولى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ لم يلغ عطاءه فى الثانية وهو: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾، وهو لا يلغى عطاءه فى الثالثة وهو: ﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾.

بل إن التقدم العلمى الذى غير كثيرا من مفاهيم الكون لم يستطع أن يغير معنى

الآيات الكريمة، بل انسجم معها، ويحضرنى قول قرأته فى أحد المخطوطات القديمة يقول فيه كاتبه: «يا زمن وفيك كل الزمن»، ومعنى هذا القول أن الزمن نسبى فى الكون، فمثلا عندما أؤدى أنا الظهر هناك أناس فى مكان آخر يُصلّوُن العصر، وأُناس فى مكان ثالث يُصلّوُن المغرب، وأُناس فى مكان رابع يُصلّوُن العشاء، وأُناس فى مكان خامس يُصلّوُن الفجر أى إنه فى الوقت الواحد يؤذن للّه على ظهر الأرض الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

إذن.. فاللّه مذكور فى كل زمن وبجميع أوقات الزمن.

هذه آية من آيات القرآن الكريم اتضحت دقة معناها عندما تقدم العلم، كان لها عطاء وقت نزول القرآن، ولها عطاء مختلف الآن، وربما يكون لها عطاء آخر فى الأزمنة القادمة بعد أن يتقدم العلم، والإعجاز هنا أن القرآن يعطى لكل جيل عطاءه، ويعطى لكل عقل حاجته بدون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون، فهو متجدد العطاء دائما، وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبدا مع القرآن؛ لأن اللّه هو الفاعل، واللّه هو الخالق، واللّه هو القائل.

هذه إحدى نواحى اختلاف القرآن الكريم فى معجزاته عن الكتب السماوية الأخرى، على أن هناك ناحية ثانية وهى أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل اختلافا آخر فكل رسول كانت له معجزة وكتاب ومنهج، معجزة موسى العصا، ومنهجه التوراة معجزة عيسى الطب، ومنهجه الإنجيل، لكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم معجزته هى عين منهجه، ليظل المنهج محروسا بالمعجزة وتظل المعجزة محروسة بالمنهج وهنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة فى نطاق التكليف، بمعنى أن اللّه سبحانه وتعالى يكلف عباده بالمحافظة على هذه الكتب.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾، أى إنهم نسوا ما ذكرهم اللّه سبحانه وتعالى به وما لم ينسوه حرّفوه، ولوّوا ألسنتهم به، وما لم يلووا ألسنتهم به زادوا عليه وجاءوا بأشياء من عندهم وقالوا: إنها من عند اللّه ليشتروا بها ثمنا قليلاً.

إذن... فتكليف اللّه سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة، أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف لكن عندما أنزل اللّه سبحانه وتعالى القرآن الكريم قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

لماذا؟ أولا: لأن القرآن معجزة، وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الإعجاز، وثانيا: لأن اللّه جرّب عباده فى الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرّفوها.

وهنا نلاحظ شيئا هاما يُبيّن لنا أن معجزة القرآن محفوظة من اللّه سبحانه وتعالى،

لو أخذنا خطين، خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه، وخط المحافظة على القرآن، نرى أن تطبيق القرآن والعمل به كلما مر الزمن قَلَّ وضعف، أما المحافظة على القرآن، فكلما مر الزمن زاد بشكل عجيب، حتى إنك ترى القرآن الآن فى كل مكتب، وفى السيارات وعلى صدور السيدات، وفى المنازل، وفى كل مكان، وتجد تجميلاً فى القرآن من أناس لا يؤمنون به، فترى رجلاً ألمانيًا، مثلاً يكتب القرآن كله فى صفحة واحدة، ويخرجه بشكل جميل وهو ربما لم يقرأ القرآن في حياته، وتجد اليابان مثلا تتفنن فى طبع المصاحف الجميلة فإذا سألت لماذا لا يفعلون ذلك فى الكتب الأخرى؟ نقول لك إنهم مُسَخرون لذلك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظ القرآن، وكل هذا الحفظ الذى تراه هو من عمل الله وليس من عمل الإنسان، وأنت حين ترى القرآن فى مكتب أو سيارة أو منزل وتسأل صاحب المنزل أو السيارة، أو المكتب هل تعمل بهذا القرآن؟ هل تؤدى الصلاة كما يجب؟ يقول لك: لا، إذن . . لماذا تحتفظ بالقرآن فى منزلك من دون أن تعمل به؟ فلا يستطيع أن يجيب، أو يقول لك: إنه بركة.

ومن هنا فإن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك فى الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم، أحيانا تجد غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله، وأحيانا نجد من لا يطبق القرآن يقتنى أكبر عدد من المصاحف، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذى يحفظ القرآن هو الله، وأنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه ؛ لأن العباد هم المكلفون بالعمل، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظه.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية وهى أن القرآن نزل رحمة للعالمين، أو للعالم أجمع وهذه إحدى معجزات القرآن، فقد كان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل المختلفة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الأدواء وتهدى الناس إلى سبيل الله، وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية ؛ لذلك اقتضى الأمر أن يأتى رسول ليعالج داءات هذا المجتمع . . بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول فى وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة فإبراهيم عليه السلام، ولوط أرسلا فى وقت واحد، لماذا لأن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئا وذلك بسبب سوء المواصلات وعدم وجود التقدم العلمى الذى يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات، بل إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتفنى بدون أن يدرى مجتمع منها عن الآخر شيئا، كما أن الداءات فى هذه المجتمعات كانت مختلفة، فمنهم مَن كان لا يوفى الكيل والميزان ومنهم من كان يعبد الأصنام، ومنهم من كان يفسد فى الأرض، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعا واحدا، يحدث شىء فى أمريكا وبعد دقائق تجده فى مصر ويحدث شىء فى اليابان، وبعد ساعات تجده فى أوروبا، إذن فالاتصالات أصبحت سهلة ومُيَسَّرة، والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة، ومع تعدد الاتصالات

وسهولتها توحدت الداءات، فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى، فكان لابد من وحدة العلاج، فمثلا الدعاية للكفر والشيوعية داء استشرى فى كل أنحاء العالم، ولم يترك دولة دون أخرى، النظام المالى والربا تجده فى الدنيا كلها، أكل المال بالباطل والسرقة داء استشرى فى معظم دول العالم، إذن الداءات أصبحت واحدة، وهذا يقتضى وحدة العلاج، ومن هنا جاء الدين الإسلامى للعالمين، أى: للدنيا كلها ؛ لأن وحدة الداء تقتضى وحدة العلاج وهذا من معجزات القرآن الكريم، فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء فسبق بذلك علم البشر.

وهناك فرق آخر بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى، هو أنه حدد مصدر العلم البشرى وروى لنا كيف يتعلم الإنسان، فقال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر، فأنت حين تريد أن تعلم طفلك، تبدأ بتعليمه الأسماء، فاللغة هى وسيلة للتفاهم بين البشر، فهذا الإنسان الذى خلقه الله والذى عمّر الأرض، وأقام كل ما نشاهده من مدنية وحضارة، كان يجب أن تكون هناك وسيلة للتفاهم بين البشر، فبدون وجود وسيلة للتفاهم لا يمكن أن تقوم حضارة أو يتم تعايش حقيقى، أو ينتقل العلم من جيل إلى جيل ليتقدم كل جيل ويأخذ حظه من المعرفة عن الجيل الذى سبقه، ويضيف إليه، وكانت هذه الوسيلة هى اللغة أو الكلمة التى تسمعها الأذن ويتكلم بها اللسان، وإذا ولد الإنسان أصم لا يسمع فإنه لا ينطق وأمامنا الأمثلة فى العالم أجمع، على أن أى إنسان لا يسمع لا يستطيع أن ينطق.

إذن. . فليست اللغة هى فصيلة دم ولا بيئة، ولا جنسا، ولا وراثة، ولا تعتمد على بشر معين. . وإنما ما نسمعه نتكلم عنه، فلو أننى أتيت بإنسان فرنسى أو هولندى، أو إفريقى أو من أى جنسية فى العالم، أتيت به كطفل رضيع، وتركته فى بيئة لا تتكلم إلا اللغة العربية، فإنه سيتكلم لغة البيئة التى عاشها، بصرف النظر عن جنسيته، ولو أننى أتيت بإنسان عربى ووضعته فى بيئة لا تتكلم العربية لصعب عليه بعد ذلك أن يتحدث باللغة العربية.

إذن. . ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان، فلا جدوى من النطق بألفاظ إلا إذا كانت معانيها قد شُرحت أولا، والأصل أن يوجد الشيء ثم يوضع له اسم، فأنت مثلاً لا تستطيع أن تُطلق لقب كوب إلا إذا وجد الكوب أولاً وإلا فالكلمة ليس لها معنى.

نعود إلى معجزة القرآن، والقرآن كلام الله، والكلام هو أساس الحضارة، وأساس العلم الذى نزل من الله إلى الإنسان، فالله سبحانه يقول فى كتابه العزيز: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]

ونحن الآن حين نريد أن نُعلّم طفلاً أن يتكلم فلابد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولاً

obeikandl.com

ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث، بل نبدأ ونقول له هذا قلم، وهذه كراسة، وهذا أسد وهذا كوب، وهذا طعام، وهذا طريق، وهذا نور، وهذا ظلام.

إذن.. نحن نعلمه الأسماء أولاً، فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم، ذلك أننا لا نعلم الطفل الأسماء فى المدرسة فقط، بل نحن نعلمه بالفطرة الطفل المتعلم والجاهل يتعلم الأسماء، فالأم تعلم الطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة.. والمدرّسة تعلم الطفل الذى يذهب إلى المدرسة، ولكن الاثنين لكى يستطيعا التفاهم فى الحياة يجب أن يتعلما الأسماء أولا، فنجد أن الطفل الجاهل والمتعلم يعلم معنى الأسماء فهو يعلم معنى كلمة طريق، أوكوب، أو أسد، أو نعامة، أو..... إلى آخره، لا فرق بين جاهل ومتعلم؛ لأن هذا مدخل التفاهم بين البشر، وأساس هذا التفاهم كما وضعه الله سبحانه وتعالى حين ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣١]، فأصبحت هى الأساس فى العالم أجمع والآن وبعد أربعة عشر قرنا نجد أن أساس العلم فى الدول المتقدمة، والدول غير المتقدمة هو الأسماء بل إن الدول المتقدمة لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم فى الحياة تأتى بصور لتعلم الأطفال الأسماء من دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية، ويستطيع الطفل أن يتعلم أى شىء آخر بعد ذلك.

كما معجزة القرآن تختلف أيضا عن معجزات الرسل الأخرى، إنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد فى منهج الله سبحانه وتعالى ما يعالج هذه القضية، نحن نقول تعالج لأن التشريعات عندما تأتى تعالج واقعا موجودا فى المجتمع وفسادا انتشر، ومن هنا فإن القرآن قد تعرض لقضايا الكون جميعها وأوجد لها العلاج، وأوجد لها الشفاء والذى يدعيه البعض أن منهج الله لا يعالج قضايا العصر، دليل على أنهم لم يدرسوا هذا المنهج، ولم يتعمقوا فيه، فما من قضية أساسية فى المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم، ولكن هنا يقع بعض اللبس، فقد يقول الناس: إن القرآن مثلا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختراعات الحديثة إلى آخر هذا الكلام، والذى يجب أن يعرفه الناس جميعاً أن القرآن هو منهج عبادة، ولكنه حينما يأتى ليعالج لا يعالج الخصوصيات وإنما يضع المبدأ، فهو حين يطلب منا أن ننقب فى الأرض ونبحث عن آيات الله، وأن نتعلم فى أمور الدنيا، وأن نعمل وننتج، ونعمر الأرض إنما هو يطلب منا لو اتبعناه لاستطعنا أن نصل إلى أكبر تقدم يمكن أن يحققه بشر، إذن فالمبدأ موجود فى ضرورة البحث فى الكون، ومواصلة البحث والدراسة، ومن يبحث ويدرس، وفى قلبه إيمان بالله، وشعور بعظمة الله وقدرته يستطيع أن يحقق الكثير، والكثير جدا، المبدأ هو أن نزرع ونعمر ونكشف عن آيات الله فيها، فإذا تقاعسنا عن هذا كله، وإذا لم نفعل ذلك، فلا يمكن أن نستغرب.. أو أن نتعجب؛ لأن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا، فنحن تركنا منهج الله فى العمل، فلابد أن يتركنا قانون الله فى النتيجة، وهذا هو الجمال فى الحياة، فلا يمكن أبدا

أن يكون هناك جمال فى الحياة إذا كان الطالب المجد والطالب الذى لا يقرأ كتابا فى حياته كلاهما ينجح، ولا يمكن أن يكون هناك جمال فى الحياة إذا كان الإنسان الذى يحرث الأرض ويعتنى بها ويسقيها ويعالجها من الآفات والإنسان الذى يترك الأرض ولا يعمل فيها شيئا بل يهملها تماما كلاهما يجنى المحصول نفسه، إذا حدث هذا فإن الجمال فى الحياة يختفى ويصبح كل شىء قبيحا، فلا تجد طالبا ينبغ، ولا عالما يخترع، ولا إنسانا يضيف إلى الحياة شيئا، ولا مدينة تبنى مادام من يعمل ومن لا يعمل سيحصلان على النتيجة نفسها، ويحققان الشىء نفسه، ولكن الجمال فى الحياة فى تناسب النتيجة مع العمل، وعن هذا يتحدث القرآن فى الدنيا والآخرة.

وبذلك نكون قد عددنا أوجه الخلاف فى معجزة القرآن عن معجزات الرسل الأخرى فالقرآن به عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق، والقرآن للعالمين، أى للدنيا كلها، وليس لقوم محددين، والقرآن يحوى الحقائق الأساسية فى الكون كله ويأتى بها واضحة فى ألفاظ تنسجم مع قدرة العقول التى عاشت وقت نزول القرآن وقدرة العقول فى كل جيل بعد ذلك، فالقرآن يعطى كل عقل حجمه.

ومعجزة القرآن تختلف أيضا فى أن الله هو الذى يحفظ كتابه، أما معجزات الرسل السابقة، فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به، وأضافوا إليها، ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أى تبديل أو تغيير.